د. سعاد درير

ثُقُوب الرُّوحِ وخَيط الحنين

دراسة في تجربة الشاعر سنان المسلماني

"مَهلا..

مَهلا يا بَوحَه الشارد..

فَلَنا بعد كل وصلةِ أنفاس تَوَّاقةٍ موعد

في حفرةٍ أخرى نُلْهَمُ فيها كيف

نُجازِفُ بالحَبّ والحُبّ

لِنَشمخ..

لِنَشمخ كآخِر نخلة يَجُودُ بها زمن

العَقارِب والعِنَب المُرّ.."

سعاد درير

"لكَ أن تَفْقأَ عينَ

الشمس في منتصف ليلي الحزين،

لكن ليس لكَ أن تَسرِقَ مظلةَ

الحُلم المشتعِلة برذاذ المساء الأخير

تَحتَ نافذة الشوق.."

سعاد درير

هي لوحة باذخة الألوان والمعاني، لوحة تُجاري الشغفَ واللوعةَ وحُرقةَ الأماني، يَرْسُمُها فنان بإحساسه الْمُرْهَف مُتَوَسِّلاً بريشة الحَرْف..

ما أَرَقّها من ريشة تَرْفَعُكَ عن المرئي الرتيب وتُسافر بكَ على ظهر غيمة الحَرْف لِتُمْطِرَ أشجارُ انتظارِكَ ما يُبْهِرُ من خُضْرةٍ تُضَاهي الأملَ المنشور على حبال السطور..

السِّحْرُ الدَّفين!

السحر الدفين لمعزوفة خيوط من نور..

خيوط من نور تُجَنِّدُكَ لعُبور الحُلْم على قارب التأمل تَجْدفُ بعينيك وقلبِك..

تجدف بعينيك وقلبك لِتَقطفَ من كل مَوجةِ حَرْفٍ زُمُرُّدةَ معنى..

كان سُلَّمُ الحَرْف..

وكان عنقودُ الألوان..

ومن هناك بدأتْ رحلةُ سنان.

أدعوكم إلى سَفَر قصير في عالَم عاشق الحروف والألوان..

إنه الشاعر والفنان سنان المسلماني.

وجدْتُ له نوافذ مشرعة على القَطْف،
قَطْف أول الحَرْف قبل أن أُصافحَ كَفَّ الـ
"مُزن":

"أنا نطفةٌ أَشْعَلَها
الهوى" (سنان المسلماني، نص
"غواص").

أفلا يستحق الحرفُ أن يَقَعَ في هواه
سنان هو مُبْدِعُ الحرفِ الوالِهُ الظمآن الـ:

"مُعَلَّق في فضاء التمني" (سنان
المسلماني، نص "عيدان")؟!

لَعَلَّ مَقْطعا كهذا يُغْريكَ بما يكفي لِتَشدّ
بحرارة على يَدِ ما شابَهَه في الصورة، كيف لا

وأول شيء يجتذبكَ اجتذابا إليه هو بلاغة التشكيل الفني من خلال بناء الصورة الشعرية.

سنان كائن مُحِبّ يستحقُّ أن يُحَبَّ، ولذلك تَجِدُ له من الأحبة مَنْ يَخْدُمُه بعينيه، ويأذن لكتابِه أن يَطير إليه..

شاعر محبوب يتسابَقُ الْمُقَرَّبُ مِن قلوبِهم قلبُه إلى فَتْح الباب لِمَنْ يُريدُ الجلوسَ بين يديه تحت مظلَّةِ مُزْنِه مستعيرا عينيه ليرى بهما ما يراه صاحبُهما في مرآةِ روحِه.

كانت لي قصة لم تنتَهِ إلا مؤخرا مع مجموعة سنان بعد أن شَدَّتْني إليه نصوص له

وجدْتُها في أماكن مختلفة تقول فيها إن أرضه أَنْجَبَتْ شاعرا رقيقا تتمايلُ أرضُ الحَرْف إعجابا بخطوته الشعرية، غير أني انشغلتُ عنه بالمواد التي جُلْتُ فيها، لاسيما وأن إدمانَ القراءةِ رَسَمَ لي حُدودَ تجربةِ الكتابةِ عند أصحابها وأنا أتعايش مع مادة الكتابة لوقتٍ طويل قبل أن أكتُبَ أو لا أكتب، بعد أن أُحْسِنَ الإنصاتَ إلى بَوْحِ الحَرفِ.

شاعرُنا سنان الذي قضيتُ أشهرا بحثا عمَّا يُغنِي من جوعِ أصابعي إلى معانَقَة حروفه وجدْتُ في نهاية المطاف أوراقَه لترتوي

العيون من عَذْبِ الحروف التي فيها يَطيبُ لِروحٍ أن تَقولَ لِروحٍ: "ما أرَقّكِ! ما أَرْقاكِ!".

من هذا المنبر تحية للطيور الغِرّيدَة، والسلام للغابة، غابة الحَرْف.

سنان إنسان، إنسان حَسَّاس، تَكاد أنتَ من رهافة أوراقه الندية تخشى أن تَجْرَحَه كما تجرح وردة. مفرداتُه موغلة في الرِّقَّة، صُوَرُه الشعرية مُحْكَمَةُ التركيب آسرة بخيالها، شِعرُه لَيِّن (والنموذج المجموعة الشعرية مَحَطّ التأمُّل)، يكاد من لُيونتِه يخترق مسامك، يفوز بإعجابك ويحظى برضاك..

ما أن تُلامس حَرْفَه حتى تحترق، تحترق بنار الإحساس العالي الذي يُضيء لك كشمعة، شمعة تذوب بين يديك وتسكب هي الكثيرَ من الدموعِ الحَرَّى لِتَحْصلَ أنتَ على حِصَّتِك من الضوء، والضوء ليس سوى لذة النص.

جميل أن يَكتبَ شاعر مثله، لا ليستعرض عضلاته الأدبية، إنما لِيُبَلِّلَكَ بإحساسه.. جميل أن يَشْعُرَ سنان ويجعلكَ تَشْعر بما يَشْعُرُ به حدّ أن تستلذّ إحساسَك، كأنك تتلذذ بتعذيبه لنفسه (سنان) هو القائل من باب استشراف المستقبل:

"أنعيمٌ أخطو إليه

أم جحيمٌ يسعى إليّ" (سنان المسلماني، نص "عيدان").

تَأَمَّلْ عزيزي هذا السؤال الذي يمثل عنوانا لوجودك على ظهر سفينةِ الغدِ ومفتاحا لباب الأيام التي تتأهب للولوج منها إلى حيث لا تدري ماذا في انتظارك: أجنة تليق باختيارك أم جحيم تدفع فيه ثمنَ قرارك أو فِرارِك، فِرارك من الباب الضيق؟!

هذا عن أوائل النصوص التي دَعَتْنِي إلى البحث أكثر فأكثر في ريبرتوار سنان

المسلماني، قبل أن تتوارى الحروف معلنةً قُدومَ "مُزن" بجلالة حَرفِه.

مَنْ يملك هذا الحِسَّ المرهَفَ الشفيفَ تخشى أنتَ أن تجرحَه بكلمة، لا بل بِظَنٍّ في غير محله، لذلك تَحْمِلُ نصوصَه بين كَفَّيْ عينيك وقلبِك كما تَحْمِلُ عصفورا صغيرا رقيقا تخشى أن يَسْقُطَ من يديك إن سَقَطَ المعنى وجَانَبَ الصوابَ، وبالمثل تخشى أن يَطيرَ عصفورُك دون إشعار في حالة ما إذا المعنى الصحيح طار.

نَعْرِفُ الشخصَ من روحه، نتعوَّد على حضوره بقدر ما تَسْكننا عذوبةُ روحه ورِقَّتُها،

نُدْمِنُ معانقَةَ أنفاس روحِه بقدر الإحساس بروحه، ونَحْكُمُ على الشخص، أيّ شخص، بترجيح كَفَّةِ جَمال روحه. سنان من هذه الطينة.

ربما لم يَحْصلْ لك شَرَفُ لقائِه كما لم يحصل لي، ربما لم يصلْ إليك صوتُه كما لم يَصِلْ إليّ، ولا رسمْتَ ملامح لشكله، لكن تَأَكَّدْ وأنتَ تَسْهَرُ مع حُروفه في شُرْفَتِكَ البعيدة أنك تراه بما يكفي كما ترى قمرا مضيئا، تراه بعين الإحساس لا بعينيك.. وعندما يبلغُ شاعرٌ مبلغَ إحساسِ القارئ

بحَرْفِه، صَدِّقوني، سيكون قد نجح في جَنْيِ عِنَبِ الكتابة.

قبل أن نسافر على ظهر الغيمة "مزن"، أسمح لنفسي أن أُسْقِطَ الألقابَ كما العادة لأقترب أكثر من صاحب النص حتى أفهم النَّصَّ وأَرُشّكم رشَّات من عِطر تجربة القراءة العاشقة. لكن رجاءً قبل كل شيء رافقوني لنلقي نظرةً من أعلى صُروح الذات على بحر الروح الذي يهيم فيه سنان، سنان الشاعر الذي يُجَسِّدُ على مَدار مُزْنِه أكثر من ذات:

"كم غيمة عليَّ أن أُحْصِي
كم عشبة عليَّ أن أوقظ

كم لحظة عليَّ أن أُسايِر

كي تلتفتي إلى الذي سقط من حقيبةِ قلبِك" (سنان المسلماني، مُزن).

لاحِظوا معي ثراءَ النواة الفكرية التي شَكَّلَها سنان بريشة رسام يَشعُر. أول شيء نُسَجِّلُه هو أن النصَّ المضغوط يتراءى لنا في صورة مونولوغ (حِوار أحادي) مع مُخاطَبة غير مُصَرَّح بها إلا إيحاءً. على أنك تَفْهَمُ مباشرةً أن مَقْطعَه الشعري اختزن رؤيةً سرديةً تُوجِز لنا حقيقةَ ما كان.

وإلينا البرهان: فهناك شخصيتان: السَّارِدِ (الشاعر)، والْمُخاطَبة الأنثى (X). لكن ما

دليلنا على أنها أنثى؟! إنه تصريف الفعل (التفت) مع ياء المخاطَبة في الزمن الحاضر، تَلِيه مباشَرةً كافُ الخِطاب المجرورة، كيف لا تكون مجرورة وقد جَرَّتْ معها قلبَ السارد/ الشاعر (قلبكِ).

أما الحدث الرئيسي، فَلْنُسَمِّه: الرحيل مع سبق الإصرار، لماذا؟! لأن حقيبةَ القلب أَضْرِبُ بها مَثَلِي الخاص في الأمانة والأمان، بالتالي صَدِّقْ عزيزي أن ما مِن شيء يَسْقُطُ من قلبِكَ بغير إرادتك، وما من شخصٍ تَسْقُطُ أنتَ من قلبِه بغير حِرصِه على أن يُفْرِغَ روحَهُ منكَ إذا كنتَ قد وَصَلْتَ أصلا

إلى مقام أن تمتلئ بكَ روحُه على سبيل الحقيقة لا على سبيل الوَهْم.

الزمنُ هو زمن العَدّ العكسي مادام سنان في زمن الشعر (مجموعة مُزن المنشورة عام 2003) يَضْبِطُ عقاربَ أيامِه على ساعة الذاكرة التي يَنْبش فيها لِيَحْفرَ حفرةً تَليقُ باتخاذها أريكة تَكْفي لاختلاء روحِه الكسيرة مع العابِرة التي حَمَلَتْ أَمْتِعَتَها ورَحَلَتْ في قطار الزمن بعيدا بعيدا أَبْعَد مِن عيني الشاعر.

فماذا عن المكان؟! إنه المسافة الفاصلة بين قلبِه وقلبِكَ قبل أن يَسْقُطَ (قلبك) من حقيبة قلبِه.

يا لَبَذَخ الرسالة الشعرية التي يَزفّها إلينا (بحبر الأسى) أوَّلُ مقطع شعري رأيتُ من العدل أن أَسْتَهِلَّ به عُبورَنا لنهرِ روح سنان الشاعر على جِسر مُزن، ربما لأنه مقطع يُصيبُك بالرصاصة نفسها التي تَضْرِبك بها نافذتا رُوح (عينان) تستحقان أن تَكون أسيرَهما، أسيرَهما المذبوح بخنجر الرحيل.

ما هذه إلا وُرَيْقَة أو ثمرة من الشجرة العظيمة، شجرة البَوْح التي غَرسَتْها كفّا سنان

في تُربةِ روحِه التي هَيَّأَت الظروفَ الصحية لِتَيْنَعَ النبتةُ قبل أن تَغدو شجرةً سامقة تَضْرب بجذورها في الأرض. فما تكون هذه الظروف؟! ليست سوى المعاني الشفيفة التي ضَمَّنَها سنان رؤاه بين ضِفَّتَيْ الشِّعر والحياة.

قبل أن تَقْذفَ بنا موجةُ نَصٍّ شعري إلى أخرى كانت لي وَقْفة عند عنوان كتاب سنان: "مُزن". "مُزْن" عنوان، والعنوان عَتَبَة. ما معنى هذا؟! معناه أن العنوانَ بالنسبة للكتاب بمثابة العتبة للبيت. صحيح أن العتبة لا ينعكس فيها البيت انعكاسا مِرْآويا، لكنها تقول الكثيرَ.

عَتَبَةُ مجموعة سنان الشعرية جاءت عبارة عن كلمة واحدة نَكِرَة. لكن ألا تقول شيئا هذه النكرةُ؟! طبعا تقول، بل إنها تقولُ أكثر مما قد يتصوره قارئ مُتسرّع لا يُعطي لهذه النكرة (العنوان) حَقَّها من المداعَبة والمصاحَبة لِتَفْتَحَ له نافذةً تَكْشف له من خلالها بعضَ أسرار فِتنَتِها.

"مُزن"..!

فَبماذا أتانا مُزن سنان؟!

مازالتْ أَكُفُّنا عالِقَةً بمُزْن سنان، وأصابِعنا كُلّها شَوْق ورغبة في أن تَحْلبَ الغَيْمَ.

أَلَمْ تُلاحِظوا شيئا؟!

لقد اسْتَخْدَمْتُ مُفَرَدَتين تُؤديان المعنى نَفْسَه إلى حَدٍّ ما: الغَيم والْمُزن. والسؤال الذي يُطلّ من فَتْحَةِ حقيبةِ الأسئلة هو: لماذا رأى سنان مِنَ الأرجح أن يُوظِّفَ مُفردةَ الـ "مُزْن" متجاوزا مفردةَ الـ "غَيْم" (أو الغيمة)؟!

هل هناك حكمة مِن أن يَمِيلَ إلى كلمة الـ "مُزن" المحدودة الاستعمال لغويا على حدّ دِرايَتي مقارنةً بـ "الغيم"؟!

لا تنتظروا مني أن أقول لكم إني سألتُ صاحبَ "مُزن" عن منطق الـ "مُزن"! فالمجموعة الشعرية نصوص أدبية، عندما يَأْذَنُ لها كاتبُها بالخروج إلى شارع القراءة لا مجال

لأسأله عن شيءٍ مِن مَوْقِعي كباحثة في الأدب.

لا بل قد لا تصدقون أنني لم أَطَّلِعْ على أي دراسة أو قراءة في مجموعة "مُزن"، حتى لا أَنْسَاقَ مع رؤية القارئ أو الدارس لـ "مُزن"، وإلاَّ ما جَدْوى قراءتي وما الجديد الذي سأضيفه وأنا منقادة لِوِجْهات نظرِ غيري من الزملاء الباحثين في الأدب أو الهواة؟!

وهنا أفتح قوسا لألفتَ الانتباهَ (باعتباري قارئة عاشقة لكل أدب جميل تَسبقه قراءةٌ متأنيةٌ وفاحصةٌ قبل الحكم عليه بالجمال إن

كان يَستحقُّه فعلا) إلى هذا العبث الذي بِتْنَا لا نُعيرُه أهميةً إلى الدرجة التي أصبح معها الأَدَبُ مُهَدَّداً بأن يُقْبَرَ (بسبب تجاهل القارئ الناقد له أو زُهْد المبدع في أن يَكتبَ في ظل غياب النقد الْمُسايِر).

لا أدعو إلى المجامَلة والنفاق الأدبي الذي سبق أن خَصَّصْتُ له مقالا طويلا بعنوان "النفاق الأدبي وحرب البالونات"، لكني أؤمن بحَقّ المبدِع في أن تُنْصِفَه عندما يكون أَهْلاً للإنصاف وجَديراً بإلقاء الكثير من الضوء على ما أَبْدَعَتْهُ أصابع مثل الأصابع التي رسَمَتْ حديقةَ آسٍ يُسَمَّى الـ "مُزن".

الأصابع ثروة تَسْتَحِقُّ أن تُثَمَّنَ عندما تُبْدِع، ومن حقها أن نكون عادِلين في تقديرها. الأصابع ثروة تَسْتَحِقُّ أن تُثَمَّنَ عندما تَقْرَأُ الإبداعَ وتُبْحِر باحثةً عن مرجان الحروف، ومن واجبِها (هذه الأصابع) أَلاَّ تَكون مُقَصِّرَةً في التعريف بمواطن الجمال حين تَكُون هناك مواطن جمال حقيقية، جمال دفين تَتَسَلَّقُه أصابعك كما يتسَلَّقُ عاشق نخلةً تُغْري بقطفها.

عندما تختلي بـ "مُزن" سنان في شُرْفَتِكَ الهادئة، فَكِّرْ في شيء واحد هو أن تُعَايِشَ حُروفَ الـ "مُزن"، وأن تَكتشفَها ورقةً ورقةً

كما تكتشف عِطْرَ وردةٍ مُخَبَّأَةٍ خَلْفَ بابِ حديقةٍ. شهادتُك في حَقِّ الوردة اعتراف ضمني بقُصور العَيْنِ الناقدة في الوصول إلى قَلْب الجَمال ومَوْطِن العِطر.

من هنا دَعْوَة صادقة إلى كُلِّ عاشقٍ للأدب بالقراءة والتنقيب عن "الفَنّ"، والشِّعرُ فَنٌّ يستحق الغوصَ والإبحارَ لِتَلَقُّف اللآلئ.

"مُزْن"..!

"مُزن" سنان انطلاقا من العنوان يكشف لنا الخلفية التي بَنَى عليها الشاعرُ طَرْحَ عنوانِه. فالشاعر يستقي عنوانَه من حقل

الدين، لأن المفردةَ نُصادِفُها أوَّل ما نصادفها في كتاب الله جلّ جلاله.

أول ما نَقْرَأُ عنوانَ مجموعة سنان نَستحضِر الشاهدَ من نصّ القرآن: "أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ" (سورة: الواقعة، الآية: 69).

فماذا يُفيد الدَّال اللغوي من مَعنى مُتَضَمَّن في الآية الكريمة؟!

إن مَدلولَه لا يَخْرُجُ عن الغيم. لكن مهلا، فَلَسْنا نتحدث عن أيّ غيم عابِر.

فهل يَقْصد سنان بتوظيف الْمُزْن الإيحاءَ بالغيم الذي يَعِدُ بالمطر؟!

هل يقصد الغيمَ الذي لا يُبَشِّرُ بمطر؟!

أم تراه يذهب أبعد من ذلك حين يُلْقي بنا معه في حفرة الحيرة التي استدرجَتْه إليها لما رأى من غير العَدْل أن يَكونَ مُزْنُه ذاك الذي قد يأتي بالمطر وقد لا يأتي بالمطر، ذاك الذي قد يأتي وقد لا يأتي وكأنه (الشاعر) في انتظار غودو (*En attendant Godot*) كما جاء في مسرحية صامويل بيكيت (Samuel Beckett)؟!

أُنْظُرُوا إلى عمق هذا الرَّجُل (سنان)!

انظروا إلى هذا الشاعر بِعُمق!

انظروا إلى لغة سنان التي ترخي بظلالها العميقة على ما هو أَعْمَق!

نحاول قَدْر الإمكان أن نَربطَ الاتصال بسياق معنى عنوان مجموعة سنان، فتَلُوحُ في أُفُقِ التساؤلات بارقةُ أملٍ تجعل مُزْنَه نابضا بالحياة، سواء تلك الحياة التي اختُزنتْ في صفحات الذاكرة العصية عن الانفلات أم تلك الحياة التي يَعِدُ بها سنان القارئَ في لحظات.

إنها لحظاتُ صفاءٍ وأُنْسٍ تَطربُ لها عيناكَ ويُحَيِّيها قلبُكَ نبضةً نبضةً بعيدا عن لسان حال واقعٍ (يُغْنِي عن السؤال) سَرقَ وردَ

الأمس من شرفة شاعرٍ لا ندري إن كان عِطرُ وردِه (ورد الأمس) يُطَيِّبُ قَلْبَهُ الذي كتمَ سنان صرخَتَه لما انغرَزَتْ فيه شوكةُ الورد، ففعلَتْ به ما فَعَلَتْه شوكةُ شجرة الورد في قصة أوسكار وايلد (Oscar Wilde) بقلب عندليبه الباحث عن رد الاعتبار لزمن الحُبّ والود عَبْر إحياء عمر حُمْرَة الوَرد ليحظى الفتى العاشق بمراقصة فاتنتِه التي اشترطت عليه من باب تعجيزه أن يوافيها بوردة حمراء في غير مواسم حمرة خَدّ الوَرد..

هل كان الفتى المسكين يُصَدِّقُ أن الخجلَ رحلَ ساحبا خلفه وشاحَ حُمرته، والحُمرة عنوان الحُبّ وبَريد القلب؟!

لا تتصوروا أني نأيتُ عن موضوع مُزْن، لماذا؟! لأن هذا المعنى حاضر بقوة عند سنان في مقطع يتصبب حنينا فيقول:

"حَنَّ الفتى للزَّهرةِ التي بأعتابِ
النوافذِ تخلعُ أكمامها
وتَستخيرُ لو غَنَّتْ بلابل الأوقات أحلامَها" (سنان المسلماني، مُزْن).

هذا هو سنان المثقف الذي امتدَّتْ أصابعه إلى دالية أوسكار وايلد لِيَقْطفَ من

عناقيدها ويَعصر بإبداعٍ ويَرسم بريشةِ إحساسِه صورةً شعريةً نَدِيةً عُنوانُها الحنينُ!

الوردة في قصة العندليب والوردة كانت تحت نافذة بيت الفتى، لكنها لم تكن حمراء. لِتُعيد الوردةُ حُمرةَ الخجل إلى خَدِّها كان على العندليب أن يُغَنِّي على امتداد ظلمة الليل. كلما غنى العندليب أكثر انغرزَتْ شوكةُ الورد في قلبه أكثر فأكثر، فمِنْ وجعِ قلبِه المذبوح وبحَّة صوتِه المجروح تُشْرِقُ شمس الحُبّ في قلب الوردة التي تَحْمَرُّ بِقَدْرِ ما يسيل دمُه مع استرسال نزيف قلب العندليب..

سنان يُبْدِعُ من مادة أوسكار وايلد معنى آخر وهو يعيد تجسيدَ المشهد بما يُمليه عليه إحساسُه.

عندليب وايلد بُحَّ صَوتُه غِناءً إلى أن احمرَّ الوردُ، لكن الفتاةَ العابثة قَتَلَتْ قلبَ الفتى لما كَفَرَتْ بدين القلب وأَجْهَضَتْ حُلما ورديا أبكى الفتى. أما عنادل سنان، فمازالتْ تَتْرك الوردةَ (الزهرة) هي الأخرى كصاحبها (سنان) مُعَلَّقَةً "في فضاء التمنّي" (سنان، نص "عيدان"، جريدة الوطن). لذلك يتعذر حلمُ الورد بالحُمْرة، لماذا؟! لأن غِناءَ العنادل شَكَّلَ النَّصَّ الغائبَ في رؤية سنان.

أوسكار يُعيدُ فَتى قِصَّتِه إلى أحضان الفلسفة بعد أن أعلن رِدَّتَه لما اكتشف لَوْثَةَ الحُبّ وسخافتَه. وهذه وردةُ سنان التي تتقاسَم معه الحنين نراها بعين شاعرٍ يُرَبِّيها على الأمل في أن تُغَني لها العنادل يوما، نراها بعين شاعرٍ لا ندري إن كان قد خَبَرَ الحُبَّ، وهل وَجَدَهُ وهماً كبيرا كما وجَدَهُ العارفون بأحوال الحُبّ ومَنْ يغرفون من خابيته!

كأن شاعرَنا لم يَقْضمْ قَضْمةً واحدة تُذْكَرُ من تفاحة الحُبّ، لماذا؟! لأنه بلسان الراوي لقصة فَتاه نجده مازال يُمَنِّي نفسَه بغناء العنادل!

فهل حقا لم ينبضْ قلبُ شاعرِنا لِقَلبٍ؟!
أم أن الشاعرَ لم يَحْظَ بنبضِ القلبِ الذي كان (أو يستحقُّ أنْ) يَنبض له قلبُه؟!

الحياة مُزن، مُزن يَطير بك إلى كتابِ تاريخٍ يسمى الذاكرةَ التي هي معادِل للكتابة بالحبر الصيني، كتابة عَصِية المرأى، لكنها ضاربة بجذورها كالوَشْم في كَفِّ امرأةٍ غجريةٍ تسمى الدنيا.

حياةُ الشاعر سنان المضغوطة مُزنٌ يُغْريكَ، يُغريك بالمطر قبل أن يُرسي بِكَ عند شاطئ اليقين بما إذا كان (سنان) راغبا في أن يُدْنيكَ منه (مَطَر الْمُزْن) أو لا يُدْنيكَ. أنتَ والحظّ!

أنـــتَ وحظّــك مـــن خـــوخ الحنـــين الـــذي يَسْتَدْرِجُكَ شَغَفُكَ به إلى تَمَنِّي أن يَسقطَ بين يديك!

إلى زَخَّات مطرِ السنين، السنين الشاهدة على ثقوب الروح، يأخذنا الحنين.

فماذا يُخَبِّئُ لنا مُزْنُ سنان من حنينِ فَنَّانٍ أرهقه الانتظار، وما صبَّرَهُ وَعْدٌ بالمطر، ولا شفعَ له سوى السفر، السفر في ليل الذاكرة؟!

قبل قراءة الْمُزن يتراءى لنا العنوان غيما يُخَيِّمُ على سماء سنان.

قبل معانَقة نصوص المجموعة الشعرية لا ندري دائما حالةَ أو وضعيةَ مُزن سنان كما جاء في سياق العنوان:

هل هو غيم زاحف باحث عن طيفٍ مَرَّ من هنا أو هناك؟!

هل هو غيم جاثم في مكانه تعتصره الرغبة في إمطار العالَم، ومن ثَمَّ العالَم الضيق الذي يُحيط بِسنان؟!

هل هو غيم غاضب ساخط يَركضُ بعيدا حالفا ألاَّ يعود؟!

هل هو غيم يَصرخ صرخةَ مَنْ يَخُونُه الصوتُ؟!

هل هو غيم يحمل على ظهره شاعرَنا ليُسافرَ به قاطعا مسافات الزمن والمكان بحثا عن ظلِّ إنسانٍ كانَ؟!

أم يوحي مزن سنان (اعتمادا على الجذر الذي اشْتُقَّ منه العنوان "م.ز.ن") بِمَدْحٍ يجعل من المجموعة الشعرية قصيدةَ حُبٍّ يزفُّها النبضُ إلى من كان الضوءَ والظِّلَّ وسقفَ الأمان؟!..

ولتكن المعزوفةُ الشعرية "بين الضوء والظل" بدايةَ السطر، سطر الحكاية كما ورد على حد تعبير سنان الراوي في مقطع شعري

شَكَّلَ بدايةَ وَصْلِي مع "مُزن" افتراضيا قبل أن تَلْمسه أصابعي.

لاحِظْ عزيزي أننا بتأملنا مَشْهَد العنوان نحاول أن نقفَ عند أكثر من إشارة تُحِيلُنا على شيء مما يصبو إليه قارئ نَهِمٌ كُلُّه شوق إلى قراءة عاشقة.

وانظروا كيف أن الكلمة النكرة (مُزن) تقول أكثر مما يقوله الْمُعَرَّف، لكنها لا تقوله دفعة واحدة، إنما تقوله شيئا فشيئا، لا تُصَرِّحُ، إنما تُلَمِّحُ، وتَفْتحُ بابَ الإيحاء على مصراعيه.

ما تَقوله النكرةُ "مُزْن" في العنوان تقوله بمزاج، تماما كما هو صاحبها سنان يكتب بمزاج، كأنه مندمج مع الغائب(ة) في لحظة إلهام وحوله ألوانُ إحساسِه يُشَكِّلُ بها لوحةَ قصيدته الطويلة الْمُرَقَّمَة الأنفاس.

ترى عزيزي جَلِيا أنني لا أُسَمِّي نصوصَ سنان تسميةً أخرى غير الأنفاس. فكلُّ نص شعري يتراءى لي نَفَساً يلتقطه سنان بكل الرقة الكائنة والممكنة ليختزلَ ويختزنَ في حَبّاتِ هوائه وهواه حكايةً ومشاعر. وهكذا جاءت الأنفاس (أنفاس سنان الشعرية)

حُبْلَى بالإحساس، والإحساس أكثر مَنْ يفهمه إنسان حسَّاس.

صَدِّقُوا أن كل نَفَسٍ معادل للغيمة التي تزفّ إلينا الغيث!

ألهذا سمى سنان مجموعتَه بالـ "مُزْن" على أساس أن كل نص قصير لا يَخْرُجُ عن كونه مُزْنَةً؟!

فَتَحْنَا البابَ في هدوءٍ، فَلْنَتَسَلَّلْ أكثر فأكثر إلى قلب البيت (المجموعة الشعرية لِنُعَايِنَ عن كثبٍ مُؤَثِّثاتِ الفضاء الشعري ونقتنصَ المعنى: ثقوب الروح وخيط الحنين.

لن نطيل الوقوف عند كل قطعة تُدَبِّجُ المكانَ. فهناك في انتظارنا أريكة تأسر شرفةَ الحنين، لها أن تسمح بمغازلة غيمة حالِمة تسمى الرغبة، الرغبة الآيلة لاشتعال مع أول سفر في الذاكرة.

غرفةُ الأمس حياة صغيرة، التَّوْقُ إليها مرآة لحياةٍ ثانية لم يَعِشْها الشاعر، لكن تَمَنَّاها..

ثَوْبُ الروح أحدثَتْ به الثقوب ما يكفي من مسارب، لكنه الحريق (الحاضر) والغريق (الشاعر).

النار مُعَادِلٌ لمساحة تآكل الروح في دواخل سنان. سُحُب كثيفة من الدخان تتصاعد دون أن تَخْمدَ اشتعالاتُ روحٍ يَكُونُها سنان.

فكيف لسنان أن يُداويَ اشتعالاتِه على امتداد الفقد في ليل الوجد؟!

هذا ما يشي به النص الشعري الذي كاد يغطي الصفحة الرابعة من غلاف "مُزن" ومنه:

"كان الجالس الماثل على مصطبة اللحظةِ
يُقَطِّرُ اللفظَ في قارورة الوجدِ

ويُحْصِي الصورَ المبذولة للفقد" (سنان المسلماني، مُزن).

كيف لا تُصَفِّقُ لشاعرٍ يتصبب من شهدِ لسانِه الشِّعرُ صورةً صورةً كما تتصبب نظرات تحنّ إلى الذوبان هياما في بحيرتي عينين، نظراتٌ تتخذ صورة قطرات مُطَهِّرَة، قطرات تُحْيي القلبَ النائم، تنبض نظرةً نظرةً وتتمايل كجسد أنثى يشتعل رغبةً في عناق، فتُشْفي العليلَ وتُحْيِي القتيلَ؟!

النظرات/ القطرات وعاء لفظي، الوجْدُ قارورةُ عشقٍ يمتد من العين إلى العين، واللحظةُ ثمرةٌ مشتهاة من شجرة الزمن،

فانظروا كيف يراها سنان بعينيه تتخذ صورةَ مِصْطَبَة (وللمصطبة قصة رقيقة معي إِذْ ذَكَّرَنِي سنان بمصطبةِ لحظةٍ أخرى تزامن معها ميلادُ الحُبّ عند بطلةِ روايةٍ كتبتُها وأضع عليها حاليا آخرَ لمساتي)!

هل اللحظة (في نَفَس سنان الشعري) مصطبة تُبقيكَ ما أمكن على ظهرها؟!

هل اللحظة مصطبة تُغْفيكَ من دفء صدرها؟!

المصطبة عرفناها. فمن يكون الجالس؟! أهو سنان؟! أم هو ذات من الذوات التي ترسمها ريشةُ فنانٍ تُصافِح قَلَمَهُ على مدار

الكتابة الشعرية، فلا تُفارِق الريشةُ القلمَ إلا لِتُجَدِّدَ اللقاءَ بكل حُرْقَةِ الشوق وهي (الريشة) تهفو إليه (القلم) مع أنها قبالة عينيه؟!

اللفظ أغنيةُ طائرٍ حزينٍ يَكُونُه سنان الشاعر وهو للحظة المنفلتة يستكين، الوجدُ قارورة حنين، والفقدُ مرآة السنين.

الوَجْدُ عين من السُّهْد لا تُشْفى. والفَقْدُ ذاكرةُ مَنْفَى..

الوَجْدُ! الفَقْدُ! الوجد والفقد هما ثنائي غير مَرح لأنه يبعث من الحزن ما لا تطيقه

روح. لكن الْمَرِحَ بحق أن يرتبط كلاهما بكيان يسمى الأنثى.

هل هذا ما يقوله سنان؟! إلى الآن ليس من المؤَكَّد. فمازلنا ندبّ نزولا إلى أعماق روح سنان، لنقف عند حقيقة الأنثى.

قبل أن نعاين الأنثى في متاهات الروح سطرا سطرا، تعالوا لِنُعَايِنَ اللوحةَ التي زَيَّنَتِ الصفحةَ الأولى من غلاف مُزْن.

من المعروف أن كاتبَ مُزن فنّان. ومن الطبيعي ألا يسمح سنان بأن يتم إقحام لوحة تشكيلية لا علاقة لها بما رَسَمَهُ كتابةً من قريب أو من بعيد. فالفنان هو أكثر من

يفهم في الخطوط والألوان، والعصفور لا يَفْهَمُ لُغَتَهُ إلا العصفورُ مثله. ومن هذا المنطلَق لا شك في أن هناك قصدية من أن تكون أولَ صفحة تقف قبالتَك وهي تُغْريك بلذة القراءة لوحةٌ لامرأة.

لستُ فنانةً بالريشة والألوان، لكني مولعة بقراءة إبداع الفنان. لا أفرض عليك عزيزي ذوقي في قراءة اللوحات ولا أحتكم إلى مقاييس قارة. لكن بحِسِّي الشاعر يتبادر إلى ذهني طيفُ امرأةٍ تسافر في المكان وتنثر شَعْرَها الذي يكتبُ به الفنان سلمان المالك قصيدةَ ليلٍ بحبر الأنوثة الموغلة في الغياب.

لن تصدقَ عزيزي أني وقفتُ منذ مدة عند لوحة غلاف "مُزْن" الفنية، وذكرتُ بإعجابٍ الفنانَ الذي رسم اللوحة (سلمان المالك) دون أن أنتبه إلى أنه هو الكاريكاتوريست نفسُه الذي يرسم لـ "الوطن".

فهل غفلْتُ عن الانتباه إلى تذوق إبداع سلمان؟! أم أن ما رسمَتْه أنامله على غلاف "مُزن" جعل ذائقتي ترقص على إيقاعات فنان يشعر رسما؟!

وهنا تساءلتُ: لماذا لم أُنْصِفْ صاحبَ الريشة الغنية بإيحاءاتها في الوقت الذي لم

أنحنِ لإبداعه الكاريكاتوري في جريدة "الوطن" بالقدر الذي يستحقه، وعذري أني أسابق الزمنَ ركضا فَلَمْ أتأنَّ في قراءة لوحاته الكاريكاتورية؟!

يقينا سيدفعني هذا التقصير (في أن أزنَ لوحات سلمان بميزان العدل) إلى أن أُنَقِّبَ في لوحاته الكاريكاتورية مجددا لأحاول فهم رؤيته الفنية حق فهمها.

لوحة سلمان على امتداد غلاف "مُزن" سنان تُمارِسُ عليكَ إغراء نوستالجيا، فتسافر في الزمن ذلك السفر الذي يهيم فيه سنان

حنينا إلى ما فاتَه، ما تَرَكَه خلفه، ما أضاعَه، ما غَيَّبَه طوعا أو قسرا..

ذاكرة سنان فَلَكٌ تدور فيه كواكب السنين العائمة. هذه الكواكب تشترك في صناعة تاريخ سنان بعين شاعرٍ فنانٍ يَعْتَصِرُ الكواكبَ اعتصارا، ويَنْتَصِرُ لماضيه انتصارا.. مَنْ يقول لنا هذه الحقيقة؟! إنها نصوصُه، أنفاسُه التي يُؤَرِّخُها سلمان بالفرشاة والألوان.

لأنفاس سنان إغراء وغواية وبوحُ نايٍ شَجِي صقلَتِ اللحظةُ الهاربةُ إحساسَه، فزادتهُ رهافة، وأمَدَّتْ في عمر الشَّجَا الساكن فيه. فكيف تَرْجَمَ سلمان إحساسَ سنان؟!

والسؤال الذي يداعبُ أصابعكَ بإلحاحٍ هو: هل اتفق مسبقا الفنانان سلمان وسنان على هذا التقارب بل الالتحام في الرؤية الفنية (رَسْماً وكتابةً شعريةً)؟! أم أن الأمر اعتباطي؟!

لكن مهلا، كيف يمكن لسنان أن يترك الأمرَ محضا للصدفة هو الذي رضع حليبَ الفن التشكيلي؟! وكيف يمكن لسلمان أن يسمح لتحفة فنية ألا تأخذ سوى إطارها اللامع الذي لا يقل قيمة عن محتوى "مُزن"؟!

المرأة السديمية التي جعل منها سلمان بطلة صورته واحتلت حيزا مكانيا مهما على

امتداد مساحة الغلاف نلاحظ أن أكثر شيء ينطق فيها شَعْرُها وعينُها. وإذا كان الشعر رمزا لِليلٍ لائل أكل جزءا من تموقع سنان على خريطة الزمن، فانظروا كيف يبهرنا سلمان بما خبَّأه في العين الواحدة من مُحَيَّا الأنثى الشاردة وقد طمس الفنانُ في مُحَياها معالم الإنسان!

العين تُضْمِرُ مسافةَ صمتٍ يقطعها سنان سَفَرا في الذاكرة، والذاكرةُ مُعادل للمنفى الإجباري الذي لا يَتَأَتَّى لكَ الفِرارُ من قبضته إلا بِضَرْبَةِ زهايمر. (عُدْ إِنْ شِئْتَ إلى

مقالي "الشوقُ إلى الزهايمر" أول مقال صافَحْتُ به قُرَّاءَ جريدة "الوطن".).

فما الذي يَرسم حدودَ المرأة المذهلة بنظرتها وقد أصابتْ ما أصابتْ من روح سنان التي اتخذت من نظرة عينٍ قلماً تَكتبُ به قصيدةَ حضورٍ ما اكتمل موعدُه وملحمةَ أشواقٍ؟!

لاحظ عزيزي أننا انطلاقا من مكان التجلي في جدار اللوحة التشكيلية نعاينُ الْمَدار الذي اتخذه طريق "مُزن" الذي لا ندري أَتَلِيقُ به افتراضاتُ عينٍ قارئةٍ لِكَفّ الألوان عابثة بحقيبةِ أدواتِ فنانٍ (سلمان).

بطلة اللوحة تَحدُّها جغرافيا مساحةُ سماءٍ تُمْطِرُكَ ألوانا، كيف لا وسماء سلمان ترتدي قميصَ قوسِ قزحٍ، فتفتح لك نافذةً على عالَمٍ نوستالجي لا نَدري حقيقةً هل هرب منه سنان أم منه تَسلَّلَ إلينا وهو يَدسّ في قبضةِ أصابعه مفاتيحَ الأمس!

عند شُرفة الرِّقَّةِ يَسقط جبروتُ القبضة، والأصابع التي تَرسم وردةَ شعرٍ رقيقةً هل من الْمُنْتَظَر ألاَّ تُطْلِعَكَ على ما لا تقوى على (قبل أن تفكر في) أن تُخَبِّئَه؟!

حديقة الألوان التي يُسَيِّجُ بها سلمان "مُزن" سنان تَعِدُكَ بالكثير، فما ينتظرك في

قلب الـ "مُزن" عوالِم ممتدَّة بين قلبين: قلبِ أمس راحلٍ بإذنٍ أو بدون، وقلبِ حاضرٍ بالذكرى مسكون.

بين الأمس واليوم ما بين الضوء والظل..

بين الأمس واليوم رغبات تُذِيب الجليد..

أليس هذا ما نستشفُّه من مقطع آسر لسنان كان بدايةَ علاقةِ عيني الناقدة وحُروفِ مُزنه قبل أن أُبْحِرَ في الحروف:

"ما بين الضوء والظل

تَحْبُو يعاسيب الرغبات

ويَستشري في النفس مدادُ الهوى" (سنان المسلماني، مزن).

(دَعُونِي أوشوش في آذانكم بأن اليَعاسيب مفردها يَعْسُوب، بمعنى مَلِكَة النحل في أكثر استخدامات المفردة. أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إنها أنثى؟! اليعاسيب أنثى، والرغباتُ أنثى، والنفسُ أنثى، والمدادُ كيف لا يكون أنثى وهو ذاكرةُ قَلَمٍ؟! حتى الهوى هو مَجْدُ أنثى سَكَنَتْ تاريخَك..).

بين الأمس واليوم حبالُ حياةٍ عليها يُجَفِّفُ سنان قميصَ أشواقه إلى الزمكان كما تُصَوره لنا سُطورُه الشعرية بكامل أناقة حَرْفِها ورشاقةِ رِقَّتِها.

هل هذه هي الأنثى (بطلة لوحة سلمان) التي عَصَفَتْ بصَرْحِ روح سنان؟!

طَيْفُ أنثى بعيد استوقف قطارَ زمن سنان واحتلَّ عَربةَ.. طيفُ الأنثى يُرْهِقُ ذاكرةَ سنان، فله حضور طاغ يجعلنا من الوهلة الأولى للقراءة نحلب غيمةَ الحنين:

"الشعر تلفت الروح إلى اللحظة الهاربة" (سنان المسلماني، مُزْن).

هذا النص القصير حَلَّ محلّ الإهداء، فهل يريدنا سنان أن نفهم بأنه يُهدي مجموعته الشعرية إلى الفن الرقيق الذي جعل إحساسَه يتفتَّح ورِدُه ويتوهج نوراً ويَنْدَى

بأرقّ المعاني التي ينحني لها المتلقي الذَّوَّاق لِسُكَّر الكلمة كما يَطْرِبُ فَمُه لتفاحة لِتَوِّها غادَرتْ شجرتَها مؤذنة باكتمال النضج؟!

وانظروا ماذا يفعل سنان هنا في نصه الموازي السابق الذكر! في خطوة أولى يَرسم لنا سنان حُدودَ مفهومه الخاص للشعر (الشعر تلفت الروح..)، وفي خطوة ثانية يجعلنا من تعريفه للشعر نستنبط قوةَ جاذبيةِ عقد الزمن المنفرطة حَبَّاته. إنها سطوة اللحظة الهاربة (..إلى اللحظة الهاربة).

لن نستحضرَ عُدَّتنا السيميائية لِنحلل الدوال اللغوية التي وظفها سنان ليربط بها

أول اتصال مع القارئ، وإنما نقف عند قراءة عابرة تَقول شيئا واحد، تقول إن الأمس الذي احتفى بطيف الأنثى (الذي مَرَّ وما مَرَّ) لا يَخْرُجُ عن كونه لحظة هاربة.

بيتُ القصيدِ اللحظةُ الهاربة. فَهَلاَّ قُلْتَ لنا يا سنان ما الذي يَدْفَعُكَ إلى أن تَخْتَزِلَ عُمرا مَرَّ بثقل سنواته في مجردِ لحظةٍ إن لم يكن شوقُك جارفا إلى استعادة أيام غادَرَتْ بسرعة الضوء وتركَتْ لكَ حُمولةً موحِشة من الحنين الذي يَعتصر قلبَك التوّاق؟!

وهلاَّ شرحْتَ لنا كيف لا يتصبب قلبُك عشقا وتعلقا بدفاتر الأيام التي سقطَتْ من

حقيبة زمنك إن لم يكن إحساسُكَ بالفقد يُشعل غابةَ قلبك الذي يتآكل بمعدل احتراق جَمْرَةٍ مُوَلْوِلا (قلبك) لخروج زمن العطاء عن طَوْعِك، زمن العطاء الذي يتقاطع مع زمن الفقدان؟!

ما كُنْتَ يا شاعرنا لِتَصِفَ زمنَ مَجْدِ قلعةِ القلب باللحظة الهاربة لو لم تَكُنْ في دخيلة نَفْسِك تَشعر بما تَشعر به شَظيةٌ فارقتْ شُعْلةً!

لكن انتبهوا أعزائي، فالشظية المعادِلة هنا لقلبٍ مَنْسي ليست هي مَن فارَقَتِ الشعلةَ، إنما العكس هو الصحيح.

سنان ليس هو مَن حمل حقائبه وغادر قطارَ الأمس، لا. سنان ما عاد في حاجة إلى الانتباه إلى حقائبه لما وَجَدَ طيفَ الأنثى يُسارِع إلى أول عَرَبَةٍ تُقابِلُه من قطار الزمن، وكأن الطيفَ تُلاحقه عيون متلصصة تَعُدُّ عليه أنفاسَه سارقةً لفرحةِ لقاءٍ لم يَكتملْ بريقُه وحابسةً لهواءٍ لم يَتصل طريقُه لِيُحَلِّقَ بِذات الشاعر في سماوات اندماج الروح مع الروح..

ولْنُقَدِّرْ موقفَ الجاثم في مكانه بعد أن لَفظَه موكبُ الزمن!

ألهذا سَمَّاها سنان اللحظة الهاربة؟!

كيف لا تَكون هاربة وهي تَـهْرب بحُلمه الكبير، تَـهْرب برغباتِه المؤجَّلة، الرغبات في الالتحام باللحظة واستثمارها قبل أن تنفلت كما ينفلت الماء من بين أصابع تحاول القبض عليه!..

ويأتي نص الشاعر الكردي شيركو بيكه الذي يستهل به سنان الصفحة الأولى من مجموعته لِيَفْتَحَ عيوننا بما يكفي على حقيقة الأنثى الهاربة من شُرفة الأمس، لكن أشياءَها مازالت مُلقاةً على رصيف الشِّعر بمنتهى الفوضى الخلاَّقَة:

"لن يَكون العاشق بليغا

لأن نارا تتأجج في أعماقه" (شيركو بيكه).

وينتصبُ السؤال علامةَ تَعَجُّبٍ: ما الداعي إلى نص شيركو ليستحضره سنان لو لم يكن لسيرة العشق محل من الإعراب رَفْعاً ونَصْباً وجَرّاً؟!

فَمَن رَفَعَ حُلمَ سنان عن أرض التحقق والتجلي؟!

مَن نَصبَ لانتظاراته مصيدةً لا تليق بِتَوْقِ عاشقٍ ملحاح؟!

مَنْ جَرَّ أَمْس الشاعر إل غير مجرى نَهْرِ حنينه؟!

بل مَنِ الجارّ ومَن المجرور؟!

أكان سنان مَن جَرَّ الذاكرةَ إلى مربط اللحظة الهاربة؟!

أم كانت اللحظةُ الهاربة من جَرَّتِ الشاعرَ بحبل الذاكرة؟!

يَقولها سنان ويكررها:

"لم يبقَ إلا أنتِ" (سنان المسلماني، مزن).

فمن تكون هي؟! والأهم، لماذا رحلت ونأتْ بها مسافاتُ الوجد؟!

وبعد رحيل من تُحِبُّ وتَهوى هل يبقى للحياة طَعم وهل تستسيغ كأسَ الذكرى؟!

"شددتُ الماءَ بحبل ظني

فضَلَّ الماء في صحراء حزني" (سنان، مزن).

طبعا للمعادلة حسابات أخرى.. وحين تتبخر مياه بحيرة الدفء التي تسبح فيها مشاعرك وعيون قلبك ستتسع مساحة الحزن، والحزن رمال متحركة تبتلع كل ما يعترض قدميها..

ماذا في وسعِكَ سوى أن تَتَكَتَّمَ على أسرار قلبكَ البئر السحيقة التي تَدْفن فيها لسانَك حين يُصْبِحُ البوحُ سفينةً مُعطَّلة لا تَقودك إلى مرفإ، بل الأسوأ أنها تَغْرِق بك

دون أن تفطن أنتَ إلى أنها تأخذك إلى القاع، قاع الذكرى، وقاع الذكرى قمقم يحتاج إلى مارِدٍ ليَعود بِكَ إلى الواجهة وفي كَفَّيْكَ شفتاك ولسانُك.

اللحظةُ الشعرية وَمْضَة خاطفة، وسِنان الراوي يُقَلِّبُ الصفحاتِ تباعا في دفتر الذكريات..

بين الرحيل والعودة مَسافةُ أَمَلٍ:

"حين تعودين إليَّ

يعود الماء نشوانا إلى حلقي

تُعْشِبُ حقول الرضاب" (سنان، مُزْن).

بين البقاء والرحيل مسافةُ عمرٍ طَحَنَهُ الزمنُ. والزمن سِكِّير ثَمِل:

"أما الزمن السكران

فلَوَّحَ للشمس الغاربة عبر النافذة" (سنان، مزن).

إنها ثمالة الزمن الذي يترنح وفي يده كأس معاناتنا يتلذَّذُ بملئها عابثا بأوجاعنا فتطول خطوتُه وتَثقل ساقاه إن لم تحملاه.

الزمن يأخذ منك أجمل ما عندك من روائع عزيزٍ وغالٍ إن لم يهددك في أحسن الأحوال بوضعها في قبضته، فتقف أنتَ على قدم واحدة وتُغمض عينا وتفتح أخرى.

وعندما تتجرد من كل ما يُعطيك وجودا وهوية لا تجد أمامك إلا أن تُعاقرَ الحَرفَ:

"أراوح بين ذا الْمَدِّ وذا الْمَدِّ
صهيل الحرف في صدري بلا حدِّ"

(سنان، مزن).

فمتى يصهل الحرفُ؟! أُجِيبُكَ: عندما تُدْمِنُ الوجعَ. وكلما تضاعفَتْ جُرعات الوجع والحزن امْتَدَّ بساطُ الحرفِ قدامك ونلْتَ وجاهةً وحظوة قلّ نظيرهما..

"حبيبتي
أحدث الصبح عنكِ حين ألقاهُ
حديثَ مذهولٍ

فأرخي حبل ألفاظي" (سنان، مزن).

أهو ذهول عاشقٍ مُحِبٍّ هذا الذي يدعوك فيه غياب تحقق الاندماج الروحي إلى الإبحار في الرسم بالكلمات لاستعادة مَجْدٍ لم يَدُمْ وترميمِ صرحٍ عَجَّلَ جبروتُ الزمن بتقويضه؟!

في غياب الطيف، يصبح الماضي مادةً قابلة لتدريسها لطالبٍ فاشلٍ يسمى الصبح الجاثم عند رصيف الحضور من باب استعادة بريقٍ قديمٍ انحنى لعاصفةِ سَديمٍ..

لكن ماذا بعد السديم؟! ألا تُبَشِّرُ أحوالُ جوقةِ عصافير القلبِ بِأَوْبَةٍ آمنةٍ لِمَنْ يُحِبّ؟!:

"حين أتيتِ من هناك

كانت روحي مُعَلَّقَة على جِدار غربتك

بمسمار أوبتك" (سنان، مزن).

أوووه! الرجوع كون باذخ فلماذا يختزله الشاعر في مسمار؟!

أليس هذا يُفسِّر الأمرَ على أنه بِلا رجعةٍ هذا الفِرار؟!

ألا يتقاسم الشاعرُ مع الطيف الهارب الغربةَ نفسَها؟!

فماذا تَبَقَّى بعد هذا للروح الهاربة منها المحبةُ:

"تحقق كيلا تفلت الروح

من سحر المحبة" (سنان، مزن)؟!

الغريب أن طيفَ الأنثى كلما نأى نأَتْ معه ملامح المدينة.. فهل هجرَتْها العصافير فأقفرتْ برحيل مُعَمِّرِيها بالحُبّ والشَّدْوِ العَذْب؟!

"مثل الموت هذي المدينة

هذي الرهينة

تستفز الشهوة

والكتابة" (سنان، مزن).

حنين صارخ إلى تاريخ مدينة طَمسَ معالِمَهُ الغيابُ.. المدينة الميتة جُثَّةٌ بعد أن

هاجَرَتْ أسراب الحياة على سفينة الزمن الذي جرَّ أذيالَه حالفا أَلاَّ يَعود.

أهذا ما جعل الشاعرَ يتساءل أين المدينة وأين أهلها؟!:

"هذي المدينة الْمُهَشَّمَةُ القلب

إلى أين سار رَكْبُ الأرواح!" (سنان، مزن).

ألا نرى أن طيف الأنثى انتشلَ الزمنَ والمكانَ، وترك للذات تمزقاتِها وتشظياتِها؟!

ففي أيِّ عالَم ممكن ستَسْبحُ الروحُ، وبأي وجه ستَستقبلُ الصبحَ:

"ما بين الساعات الأولى

من فجر اليوم

والساعات الأولى من فجر الأمس

كانت روحي تتفتح مثل زهرة

على سرير الوقت" (سنان، مزن)؟!

يا لهذا الجنون الذي يقترفه الزمن في خطه التراجعي!

إذا كانت الروح تتفتح من بداية اليوم إلى نهاية الأمس، أليس معنى هذا أن الشاعر يوحي بالعكس كليا؟! أليس معنى هذا أن وردة الروح تذبل من الأمس إلى اليوم؟!

ذبولُ الروحِ هو الوجه الآخر لذبول وردةِ الحُبّ:

"هل تذكرين الحُبّ الذي كنتُ
أدفقُ في ساعات الوجد والخيبة" (سنان، مزن).

كأن الحُبَّ مرهم يُطَيِّبُ الجراحَ.. بالحُبّ تتسع بركةُ الشغف، وبالحُبّ نُخَفِّفُ الخساراتِ ونُلَطِّفُ جَوَّ الخيبةِ..

وبرحيل عصفور الحُبّ الطليق تشتعل الذاكرة. الذاكرةُ جَلاَّد، وعذابُها سوط:

"عذبني صهيل الصور الراقدات على الأسى
وقلبني على جمر المفردات" (سنان، مزن).

فأي ممحاة تقوى على محو كتابة الذاكرة؟! ويا لها من كتابة لا تستثني شيئا حتى القبلات المستعصية الهاربة مع ضوءِ الأنثى إلى سَكَنٍ آخر:

"في بعض الليالي الحزينة

أشم رائحةَ القبل التي مَضَتْ

إلى أَنْفٍ آخر" (سنان، مزن).

حين يغيبُ الضوءُ، ما يُجْدِي الظِّلُّ نَفعاً؟!:

"في الظل

ينمو الإنسان الظل

تورق أغصان الروح

وتخضل بندى التلاشي" (سنان، مزن).

ولْنَنْظُرْ إلى هذه الصور الصادمة التي يتكئ عليها الشاعر! أيعقل أن تُورقَ أغصانُ الروح بغير الألم حين تمعن الروحُ في التلاشي؟!

أليس هذا ما يؤدي إلى تراكم ثقوب الروح؟!:

"غابة الحجارة تلك الممتدة

من القلب وحتى البحر

من البحر وحتى القلب

صندوق من برسلان مُحَطَّم" (سنان، مزن).

كل ما يُحْمَدُ للذاكرة هو عَبَقُ الأحلام الذي يفوح من الألفاظ التي تشتعل برماد الأمس.. وهنا مربط الحنين إلى مراعي الطفولة:

"بهية سحائب الطفولة

في التماعات ذاكرتي الماكرة" (سنان، مزن).

الحنين إلى الماضي بشكل عام يُرْهِقُ روحَ الشاعر:

"فسلام على الوقت الْمُراق

سلام على الأمنيات

سلام على الثواني العليلة" (سنان، مزن).

الحياة ظل.. الرغبات لم تغادر طفولتَها.. والهوى قلم يكتبُ قصيدته.. الأمنياتُ محرِّكاتُ عَرَبَةِ عمرٍ مع وقف التنفيذ، الماضي تُشَيِّعُ جنازتَه طيورُ الليل بحثا عن الزمن الضائع لولا جِسر الحنين.. واللحظة واقع مريض يحتاج إلى يَدٍ تُداويه:

"أنا المسكين

ليلي ليل الثواني والأماني المطفأة" (سنان، مزن).

فمن أين للعمر بتلك التي يستظل الصبحُ بضوء عينيها:

"يقوم الصباح مثلك إلى

فتنته، طيوبه..

ويستظل بوجد عينيك" (سنان، مزن)؟!

لكم أن تلاحظوا أعزائي كيف أن على مدار الحرف تمتد مساحةُ بوحٍ تَنتصبُ فيها أشجارُ الحنين التي يزفّ ثمارَها القلبُ إلى القلب..

الشاعر المعذَّب بحنينه يبحث عن إعادة تعمير روحه في ظل خذلان الزمن له وعبثه بخيوط روحه كما تعبث أصابع جاهلةٌ بأوتارٍ لا تُجيدُ العزفَ عليها، فيكون اللحنُ بالتالي مُشَوَّها ومَمْسوخا..

ألهذا صرخَ الشاعرُ صرختَه المدوية في سماء ليلِ المشاعر:

"مذبوح

مجبول للتي أهوى

وباب الليل مرصود" (سنان، مزن)؟!

إنها رصاصة، رصاصة قاتلة تَطْرب لها الجوارح ويُصَفِّقُ لها القلب.. رصاصة تُسمى الحُبّ، الحُبّ الذي يَرقص له القلبُ في زمن اشتعاله، ويجثو خائر القوى والأنفاس في أوان انطفائه:

"عوسجة مثلي تَنوء بالحُبّ" (سنان، مزن).

ربما عبَرَتْ رصاصةُ قلبِها (الأنثى) من هناك أو من هنالك شاقَّةً طريقَها إلى قلبِ شاعرٍ مُرْهَفٍ فَأَسْقَطَتْ قُبَّعَتَه.. هل هذا ما أصابَ الشاعرَ وألقى به في بحر الحنين؟!

لِنَتَأَمَّلْ آخِرَ نَفَسٍ احتلَسَهُ الشاعرُ معترفا بعُبور نهرِ الحُبّ قبل أن تنطفئ أنفاسُه:

"كالحُلمِ أنتِ

كالمحارة التي احتضَنَتْ لمسةَ الحُبّ"

(سنان، مزن).

إلى وسادةٍ ناعمةٍ ولحافٍ دافئ يَحِنُّ إليهما رُعاةُ الإحساسِ في رُبَى الشعر، حيث يَطيبُ للروح أن تُطارِدَ طَيْفَ غيمةٍ منفلِتةٍ،

يَأخذُنا شاعرٌ مُلْهَم يرتق ثُقوبَ الروح بخيط الحنين. إنها تُمْطِرُ.